الشهاب الشاغوري

٥٣٣ ـ ٦١٥ هـ

١١٣٩ ـ ١٢١٨ م

حياته وآثاره

مراحل حياته

في بانياس الساحلية (١) ، ولد الشاعر فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الأسدي الخزيمي (٢) ، المعروف بـ « الشاغوري المعلم » : سنة ٥٣٣ هـ .

يظهر أنه اتخذ من حي الشاغور (٣) في دمشق سكناً له ، فأنشأ فيه كتّاباً لتعليم الصبيان في مطلع حياته بعد ارتحاله عن مدينته .

ولا نعرف على الضبط سبب مغادرة بلده الساحلي الجميل ، وأغلب الظن أنه بسبب الأخطار المحدقة به ، ولا سيما بعد احتلال الفرنجـــة

---

(١) وهي غير بانياس الداخلية وقد ضبطها ياقوت (بلنياس) بضمتين وسكون النون ، وذكر أنها كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر (معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٨٩) وضبطها صاحب القاموس المحيط (بلنياس) بكسرتين وسكون النون ، وذكر أنها مدينة حسنة بسواحل حمص (القاموس المحيط ، ج ٢ ص ٢٠٣) .

(٢) نسبة إلى أسد بن خزيمة وهو أبو قبيلة من مضر ، وابن ربيعة بن نزار .

(٣) ذكر ياقوت أن الشاغور محلة بالباب الصغير مشهورة وهي في ظاهر المدينة (معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣١٠) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الطراز الأخضر(١) السوري ، وهو العامل نفسه الذي اضطر ابن القسراني ، وابن منير الطرابلسي إلى الهجرة من بلديهما قبله .

لا نعرف عن طفولته شيئاً يذكر ، شأننا في ذلك عند معظم من نترجم لهم ، وكل ما يمكن ذكره أنه اشتهر أمره في دمشق ، وكانت له حلقة خاصة في الجامع الأموي ، يُقرئ النحو ، ويُدرّس الأدب ، وقد لقيه ياقوت الحموي في أخريات أيامه بعد أن ناهز التسعين ، فسمع منه بعض شعره ، وأعجب به كثيراً (٢) .

خدم الشاعر الملوك الأيوبيين ، ومدحهم بغر قصائده ، وآثر أن يختص ببعض أمرائهم الذين كانوا يجزلون له العطاء ، فتعلق بخدمة الأمير نور الدين مودود بن المبارك شحنة دمشق ، وهو أخو عز الدين فروخ شاه وابن أخي صلاح الدين لأمه ، فمدحه بقصائد كثيرة وأطنب في ذكره ، فكتب إليه صاحبه ابن عنين مداعباً :

يا من تلقب ظلماً بالشهاب ولن ... يأتي بظلمته في أفقها الشهبا
لا يَغُرَّنَّك من مودود دولته ... وإن تمسّكتَ من أسبابها سببا
فلست تنبح فيها غير واحدة ... حتى تلفّ على خيشومك الذنبا (٣)

لم يرتحل الشاعر عن دمشق إلا للإقامة في بعض ضواحيها القريبة فسكن الزبداني ، واشتغل فيها معلماً (٤) ، وقد ورد في ديوان صاحبه ابن عنين

---

(١) ذكر أبو شامة أن الطراز الأخضر هو بلاد الساحل المصطفة على البحر من الداروم وغزة وعسقلان وعكا وصيدا وجبيل وغير ذلك ، وحبذا استعمال هذه التسمية الجميلة في كتبنا الجغرافية والتاريخية (ينظر في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ١٠٤) .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣١٠ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

(٤) ديوان ابن عنين ، ص ١١٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المار ذكره أنه اجتاز بها ذات يوم ، وقصد مكتبه ليزوره فلم يجده فأخذ لوحاً من أحد الطلبة وكتب له فيه :

أتيت فما حظيت لسوء بختي بخدمة سيدي ورجعت خائب
إمام ما تيممنـــاه إلا رجعنـا بالرغائب والغرائب (١)

أعجب الشاعر بطبيعة الزبداني الجميلة ، فوصف ثلوجها وشدة قرّها ، ويلاحظ في حياته أنه كان كثير الخمول ، يفضل الاستقرار على الارتحال ، راضياً من الحياة بما قسم له ، مؤثراً السلامة على السعي وراء المجد والشهرة ، ثم يود بعد كل ذلك لو تبتسم له الأقدار عن حظ سعيد ، وهو قابع في كتّابه يسعى ما بين الشاغور والجامع الأموي والزبداني ويتساءل قائلاً :

عَلاَمَ تحركي والحظ ساكنْ ؟ وما نهنهت عن طلب ولكنْ
أرى نذلاً تقدمـــه المساوي على حرّ تؤخره المحاسن (٢)

هكذا قضى عمره يرقب الحياة ، فلا يرى فيها غير التناقض ، فآثر العزلة في كتّابه ، يسعى إليه الطلبة والأدباء ليلتقوا به حتى شاخ وهرم فناهز التسعين ، وتوفي سحر الثاني والعشرين من المحرم سنة ٦١٥ هـ ، ودفن بمقابر باب الصغير .

آثاره الأدبية

للشاعر ديوان شعر مشهور (٣) ، وهو كبير فيه مقاطيع حسان (٤) ، وأغلب الظن أنه لم يقم بجمع ديوانه في حياته ، وإنما قام بجمعه واختياره

(١) ديوان ابن عنين ص ١١٩ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .
(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٧٤ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابنه بعد ثمانية أعوام من وفاته ، وفي الهند نسخة وحيدة مخطوطة منه (١) ، كتبت سنة ٦٢٣ هـ . وله أيضاً ديوان آخر صغير (٢) ، اقتصر فيه على ما نظمه وجمعه من الفن الشعري المستحدث المسمى بالرباعي ، والمعروف باسم « الدوبيت » ، وهو مفقود ، ولا نعرف منه غير مقطوعة واحدة سنذكرها في معرض حديثنا عن شعره ومذهبه الفنيّ .

شعره ومذهبه الفني

أغراض شعره

في شعره وصف رائع للطبيعة الدمشقية ، تتجلى فيه بأزهى حلاها ، وهو غالباً ما يتبعها بنسيب تقليدي ، ثم يخلص من كل ذلك لمدحه المختلفة .

طبيعة دمشقية

وصف الشاعر الطبيعة الدمشقية وصفاً دقيقاً ، تطرق فيه إلى كثير من متنزهاتها وغير ذلك ، فهو يضفي على وصفه طابعه الشامي ، ويقتصر منه على بيئة معينة ومكان معروف ، فلم يكن كسائر الشعراء يتحدث عنها حديثاً عابراً أو عاماً ينطبق على كل بيئة ويصلح لكل زمان ومكان .

أعجب بالزبداني ، فأقام فيها ، ونقل إليها كتّابه ، فراقه فيها ثلجها المندوف في كانون شتائها القارس ، فأنشد يقول :

قد أجمد الخمر كانون بكل قدحْ ... وأخمد الجمر في الكانون حين قدحْ
يا جنة الزبداني أنت مسفرة ... عن وجه حسن إذا وجه الزمان كلحْ

(١) في المجمع العلمي بدمشق صورة مصورة عن المخطوط المذكور برقم ١٤١ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالثلج قطن عليك السحب تحلجه والجو ندافه ، والقوس قوس قزح
متى يجل فيك طرف الطرف من مرح قرنته لحاً تأتي بحسن ملح
تلقى النواظر من روض نواضر في قلوبنا فرجاً من همها وفرح[1]

لا تخلو هذه الصورة من تصنع بديعي هام ، بيد أنها على الرغم من كل ذلك صورة حقيقية لمصيف قائم في مكان مرتفع شديد القر تعبث به الثلوج الكثيرة في أيام الشتاء .

وفي قلب دمشق ، في باب بريدها ، جنة عارشة ، أعجب الشاعر بها فتحدث عنها ، وأشار إلى ما حولها من متنزهات : كالنيرب وجسر ابن شواش ، والشرف الأعلى ، والقصر المنيف ، والمرج الأخضر ، ومما قاله :

يا حبذا جنة باب البريد بها والحسن قد حشيت منه حواشيه
فالمرج فالنهر فالقصر المنيف على القصور بالشرف الأعلى فشانيه
فجسر جسر ابن شواش فنيربها تحلو معانيه لا تخلو مغانيه
كأن في رأس عليين ربوتها يجري بها كوثر سبحان مجريه
تلك المرابع لا رضوى وكاظمة ولا العقيق تواريه بواديه[2]

تلك هي الطبيعة التي يرى الشاعر أن ينصرف إليها كل شاعر آخر ، فيكف عن ذكر البوادي والعقيق ورضوى وكاظمة . صورة تشعر بالجدة التي أخذ بها الشاعر نفسه في وصفه ، ولو شفعها بنبضات قلبه كما في غيرها لكانت عجباً ولكنها جاءت خفاجية الديباجة ، عبثت بها الصنعة الجناسية جرياً على أسلوب العصر .

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشاغوري ، ج ١ ل ٤٦ .
(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشاغوري ، ج ١ ل ١٢٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يحلو لنا بعد هذا التجوال في ضواحي دمشق ومتنزهاتها النائية أن ندخلها مع الشاعر لنشهد طبيعتها عن كثب ، وقد تفتحت أكمامها ، ورقت أنسامها ، واختال ربيعها الضاحك ، فبدت رائعة الحسن تسر الناظرين :

نوح الحمام الورق في أوراقها ... دل أخا الشوق على أشواقها
فأظهر الدمع وأخفى زفرة ... خاف على البانات من إحراقها
لو بكت الورق ببعض دمعه ... لمحت الأطواقَ من أعناقها
فاعجب لها شاكيةً باكيـة ... لم تسلك الدموع في آماقها
ما أفرقت مهجته من الجوى ... لكنه أشفى على فراقها
دع العريب والنقا وزينباً ... تجذب للبين بُرى نياقها
وعج على دمشق تلف بلدة ... كأنما الجنات من رستاقها
سقى دمشق الله غيثاً محسبا ... من مستهل ديمة دفاقها
مدينة ليس يضاهي حسنها ... في سائر البلدان من آفاقها
تود زوراء العراق أنها ... منها ولا تُعزى إلى عراقها
أهدت له يد الربيع حلة ... بديعة التفويف من خلاقها
بنفسج مثل الخدود أدميت ... بالقرص والتجميش من عشاقها
ونرجس أحداقه رانية ... عن مقل الغيد وعن أحداقها
تنزّل المنثور من رياضها ... تنزل الأعلام من شقاقها
فأرضها مثل السماء بهجة ... وزَهرها كالزُّهر في إشراقها
مياهها تجري خلال روضها ... جري الثعابين لدى استباقها
مسفرة أنهارها ضاحكة ... تنطلق الوجوه لانطلاقها
نسيم ريا روضها متى سرى ... فكَّ أخا الهموم من وثاقها
قد خيَّم الربيع في ربوعها ... وسيقت المنى إلى أسواقها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا تسأم العيون والأنوف من رؤيتها يوماً ولا استنشاقها (١)

استهل الشاعر بوصف طبيعة دمشق مطلع المدحة التي خص بها ممدوحه مودوداً ، فتحدّث بادئ الأمر عن الحمائم الورق ، وقارن بين حاله وحالها ، ووصف بعد ذلك ما يلقاه من الوجد والجوى ، وذكر أنه أشفى على الهلاك . ويخاطب صديقة بعد ذلك ، فيدعوه بصراحة إلى ترك التغني بزينب والعريب والنقا ، ويطلب منه أن يعرج على دمشق ذات الجنان والينابيع ، ويخلص من كل ذلك ليطنب في وصف ربيعها الذي أبدعته قدرة خلاقها ، ويصور بدقة البنفسج والنرجس والشقائق والنثور ، ثم ينتقل لذكر الأنسام والجداول ، ولا ينسى في ختام هذا الوصف إشراك حاسة أخرى غير البصر ليصل ما بين الطبيعة والنفس بلذة الاستمتاع ونشوة الجمال .

نسيب تقليدي

كان الشاعر في الغالب يتبع وصف الطبيعة بنسيب تقليدي كما في القصيدة السابقة ، إذ تحدث بعد وصف الطبيعة عن شادن تحسده البدور ، ثم تطرق بعد ذلك لوصف الممدوح .

لم يكن الشاعر مبدعاً في نسيبه وغزله كما في وصف الطبيعة وشتان ما بينهما ، وإنما هما ضرورة اقتضتها طبيعة التقليد في الفن الشعري العربي .

كان في نسيبه يجري في حلبة شعراء العصر ، وطبيعي فيمن طلب من صديقه أن يعرض عن ذكر زينب والنقا والعريب ويحذو حذوهم فيتغزل بظبي شادن من الترك .

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشاغوري ، ج ١ ل ١٢٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وميض برق أرى في فيك أم شنبا ؟ وهل رشفت رضاباً منه أم ضربا ؟
أفدي الذي ما أبى باللحظ سفك دمي لكنْ متى ما طلبت العطف منه أبى
ظبي من الترك أصمتني لواحظه وأسهم الترك إن أصمت فلا عجبا
يبدو بضدين في خديه قد جمعا ماء الشباب ونار الحسن فاصطحبا
فذلك الماء أبكى ناظريَّ دماً وذلك الجمر أذكى في الحشا لهبا
شكا فؤاديَ من عبء الهوى تعباً كما شكا خصره من ردفه تعبا
يهز أعطافه دلُّ الصبا فترى غصناً من البان يثنيه النسيم صبا
يا مطلع البدر فوق الغصن معتدلاً يلوح ما بين شربوش وطوق قبا (١)
اعدل فإن رسوم الجور قد درست مذ صار فينا مكين الدين محتسبا (٢)

ليس في هذا النسيب غير ما ألفه الناس في شعر هذا العصر : صور تقليدية معروفة من أوصاف مبالغ فيها ، وذكر أحوال المحب وعذابه ، وما يلقاه من لاعج الشوق وحرقة الجوى . يضاف إلى ما أسلفنا ذكره استخدام بعض الألفاظ المعربة الشائعة على ألسنة العامة ، كما رأينا ذلك أكثر من مرة ، فمن قبل استخدم الرستاق ، واستخدم في هذه القصيدة الشربوش ، وقد وردت مراراً في ديوان شعره وغير ذلك كثير .

أما خمرياته فتكون تارة ضمن نسيبه ، وتكون أخرى مستقلة كما في هذه القصيدة التي جاء فيها قوله :

قم فاجل بنت الكرمة الخضراء في الكأس كالياقوتة الحمراء

(١) الشربوش : قلنسوة طويلة ، وهي معربة عن السربوش ، وتطلق على غطاء الرأس . والقبا : وهي مقصور القباء ، وهي ثوب يلبس فوق الثياب .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ص ٢٥٤ . هذه القصيدة غير موجودة في الديوان المخطوط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

راح متى ما أشرقت كاساتها فاضت أشعتها على الجلساء
في شربها من كل قلب شهوة فكأنها خلقت من الأهواء
وإذا انجلت في الليلة الليلاء هزمت ظلام الليـــل بالآلاء
يا لائمي في شربها أغريتني باللوم فيهـــا غاية الإغراء
يا حبذا هي في الخريف وغيره في سائر الأوقات والآناء
ما العيش إلا في المدام وشربها لكنْ مع الظرفاء والعقلاء (١)

يظهر أن الشاعر كان يعرض في بيته الأخير بالشعراء الإباحيين ، وقد سلك في هذه الخمرية سبيل عرقلة الكلبي (٢) إمام الجماعة في مذهبه الخمري ، وهم يمثلون علاقة شعراء هذه المدرسة الشامية بشعراء المدرسة الخيامية .

مدح مخلفة

يخلص الشاعر بعد مقدماته المستفيضة في وصف طبيعة دمشق ، والتخلص منه إلى النسيب التقليدي المعروف ليثني على ممدوحيه ، ومن الخير أن نقتطف الأبيات التي مدح بها صاحبه مودوداً من القصيدة التي استهلنا بها الحديث عن وصفه طبيعة دمشق ، وجاء فيها قوله :

أشكو إلى الأشواق ما شكته جلّـــــقٌ إلى المودود من أشواقها
حق لبدر الدين أن تحسده على العلى البدور في اتساقها
كماله أحسن من كمالهـــا فصين ، طول الدهر ، عن محاقها
قد خيم الربيع في ربوعهـا وسيقت المنى إلى أسواقهـا
اختـــاره الله لخير أرضـــه إذ ليس مثل الشام في آفاقها
فقابل الشام برأي رتق الـ أمور بعد شدة انفتاقهـــا

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشاغوري ، ج ١ ل ٩ .
(٢) عرقلة الأعور حسان بن نمير بن عجل الكلبي (٤٨٦ ـ ٥٦٧ هـ) شاعر من الندماء في زمن صلاح الدين الأيوبي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما غُلَّ في الحرب، ولكن غلَّ أيـــدي عُصبُ الكفر إلى أعناقها
لا فتئت أيامـــه سعيـــدة لا تُنكث الدهرَ قوى ميثاقها(١)

نشير إلى آخرين ممن مدحهم كالناصر صلاح الدين ، وقد مدحه وهو في دمشق مرارا ، ولا بأس أن نقف عند القصيدة التي أنشده إياها في قلعة دمشق بعد فتح بيت المقدس ، وهي تبلغ نحواً من مائة بيت ، ومنها قوله :

يا ناصر الإسلام فزت بمورد حسن الثنا في العالمين ومصدر
فلقد وأدت الشرك يوم لقيتهم وغدوت للإسلام عين المنشر
ورأيتهم لما التقى الجمعان بالـــبيت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه بالمسجد الأقصى بوجه مسفر (٢)

نكتفي بهـــذا القدر مما أوردناه من أغراض شعره ، ونخلص لنؤكد ما ذكرناه ، ونقول إن وصف الطبيعة الدمشقية كان أبرز أغراضه الوصفية ، وقد أبدع الشاعر فيها كل الإبداع ؛ أما سائر شعره فكان شأنه فيها شأن أي شاعر آخر من شعراء هذا العصر .

مذهبه الفني

لاحظنا أن الشاعر كان يؤمن بالثورة على المعاني التقليدية في بعض الأحيان ، وعلى الأساليب الشعرية الموروثة ، وبخاصة فيما يتعلق بهيكل القصيدة العربية ، فنظم في فن الرباعي الفارسي (الدوبيت) ديواناً كاملاً ، لم يصلنا منه مع الأسف الشديد غير رباعية واحدة اختارها لنا ابن خلكان من هذا الديوان المفقود ، وهي قوله :

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشاغوري ، ج ١ ل ١٢٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ل ٦٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الورد بوجنتيك زاهٍ زاهر والسحر بمقلتيك وافٍ وافر
والعاشق في هواك ساهٍ ساهر يرجو ويخاف فهو شاك شاكر (١)

ولم يكن ليقتصر في تجديده على الهيكل المعروف ، وإنما كان يحاول أن يخرج كما ذكرنا عن طوق التقليد الأعمى ، فقد كان يكره ذكر زينب والعريب والنقا ، وتأخذ طبيعة دمشق بلبّه ، فيعرض عن ذكر رضوى وكاظمة والبوادي وعقيق جرياً على سنة أبي نواس من قبله .

نترك هذا وذاك لنقرر أن الشاعر نهج في مذهبه الفني نهج شعراء عصره ، فأخذ نصيبه من التطبيق والتجنيس ، بيد أنه لم يكثر منها في شعره ، وأخذ من السهولة والانسجام نصيباً آخر ، فبدا تصنعه جميلاً في رونق الطبع ، ورشيقاً في قالب من الوضوح ، ودقيقاً في إطار من الطبيعة والوصف .

هكذا جمع الشاعر في مذهبه الفني بين اتجاهين معروفين في عصره : اتجاه من سبقه من الشعراء أمثال ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وغيرهما ، واتجاه من جاء بعده كابن عنين والشرف الأنصاري (٢) .

الدكتور عمر موسى باشا

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٤٠ ، ج ٢ ، ج ٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net